العدد ٢٠٠٢/١٩

الأحد ١٢ أيار

الأحد الجديد

أحد توما الرسول

تذكار القديس أبيفانيوس القبرصي والقديس جرمانوس القسطنطيني

إنجيل السَحَر الأول

الرسالة

(أعمال الرسل ٥: ١٢–٢٠)

في تلكَ الأيامِ جَرَتْ على أيدِي الرسُلِ آياتٌ وعجائبُ كثيرةٌ في الشعب. (وكانوا كلُّهم بنَفْسٍ واحدةٍ في رواقِ سُليمان* ولَم يكنْ أحدٌ من الآخرينَ يَجترئُ أنْ يُخالِطَهُم. لكنْ كان الشعبُ يُعظِّمُهم* وكانَ جماعاتٌ من رجالٍ ونساءٍ ينضمون بكثرةٍ مؤمِنينَ بالرب)* حتّى إنّ الناسَ كانوا يخرُجونَ بالمرضى إلى الشوارع ويضعونهم على فُرُشٍ وأَسِرَّةٍ لِيَقَعَ ولو ظِلُّ بُطرُسَ عندَ اجتيازهِ على بعض منهم* وكان يجتمعُ أيضًا إلى أورشليمَ جمهورُ المدنِ التي حولها يحملون مرضى ومُعَذَّبينَ مِن أرواحٍ نَجِسة. فكانوا يُشْفَونَ جميعُهُم* فقامَ رئيسُ الكهنةِ وكلُّ الذينَ معهُ وهم مِن شيعةِ الصدوقيينَ وامتلأوا غيرةً* فألقَوْا أيديَهُمْ على الرسُلِ وجعلوهم في الحبسِ العام* ففتحَ ملاكُ الربِّ أبوابَ السجنِ ليلاً وأخرجَهم وقالَ* امضُوا وقِفُوا في الهيكلِ وكلِّموا الشعبَ بجميعِ كلماتِ هذه الحياةِ.

إيمان توما

«إن لم أُبصِرْ في يَدَيْهِ أَثَرَ المساميرِ وأضَعْ إصبعي في أثَرِ المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن» (يو ٢٠:٢٥).

هكذا أجاب الرسول توما التلاميذ الآخرين عندما أخبروه أنهم رأوا الرب قائمًا من بين الأموات. ولكي لا يتركه الرب في شكه ظهر له بعد ثمانية أيام ودعاه أن يضع إصبعه ويده في أثر الجروح. فصرخ توما للحال «ربي وإلهي. قالَ لهُ يسوعُ لأنَّكَ رأيتَني يا توما آمنتَ. طوبى للذينَ آمنوا ولم يرَوا» (يو٢٠: ٢٨ و٢٩).

كثيرون في عالمنا اليوم يتكلّمون مثل الرسول توما: «إن لم أبصر... إن لم أضع...»، ويعلّلون تصرّفهم بأن هذا هو التفكير العلمي، وبالتالي يطلبون البراهين ليصدِّقوا أو ليؤمنوا. يستعملون كلمات «علمي» و«غير علمي» وكأنها كلمات واضحة بحد ذاتها، يتمسكون برأيهم ولا يتزحزحون. هل العلم محصور بما أرى وألمس؟ إذا كانت معرفتي محصورة بما أرى وألمس وأقيس وأحلِّل، أفليست معرفتي محدودة؟ إذ ان عالم الإنسان الروحي ليس «ما أرى» أو «ألمس»، بل ما «أفكر وأحس وأتأمل». قدرة الإنسان على التفكير والحس والتأمل تضعه ضمن عالم المعرفة غير المرتكز على المعاينة الخارجية، وتميِّزه عن باقي المخلوقات الحيَّة والجامدة. الإنسان الآلي والكومبيوتر وغيرهما من الآلات تستطيع حمل الأشياء ولمسها وتحريكها، وقد تعطي عنها أدق الملاحظات والتوقعات. ونعلم انها تقوم بالقياسات والمقارنة أفضل من الإنسان.

لكن ما لن يستطيع أي رجل آلي عمله تحت أية ظروف هو قدرته على التعجب، الأسف، الشعور بالفرح أو الحزن، رؤية ما لا يمكن قياسه بالأوزان أو تحليله. لن يعرف الاختلاجات التي تولّد الموسيقى والشعر، لن يعرف معنى البكاء أو الثقة. بدون هذه الأمور كلها ألا يصبح عالمنا مقرفاً، لا لون له وغير ضروري، رغم كل ما يوجد فيه من اكتشافات علمية مذهلة.

المعاينة ليست إلا نمط من أنماط المعرفة، وهو نمط بدائي، إذ قد يخون النظر صاحبه في بعض الأحيان. التحليل العلمي جيد، لكن أن نختصر كل المعرفة البشرية بهذا النوع من التحليل هو كمن يقارب جمال لوحة بتحليل ألوانها عوض النظر إلى كليتها. ما نسميه الإيمان هو درجة أعلى من المعرفة البشرية، لا يستطع

الإنسان العيش بدونه. كل إنسان يؤمن بشيء ما أو بأحد ما، لذا فإن السؤال الوحيد هو أي إيمان ورؤية ومعرفة للعالم تتجاوب بالأكثر مع غنى الحياة وتعقيداتها.

قد يقول البعض ان قيامة المسيح هي نسج خيال لأن الموتى لا يقومون. هذا صحيح إذا كان الله غير موجود. لكن إذا كان الله موجودًا فالموتى يقومون، لأنه «ليس الله إله أموات بل إله أحياء» (متى ٢٢:٣٢). قد لا تستطيع رؤية الله بالعين المجردة، لكن خبرة ملايين، بل مليارات البشر تؤكد رؤيته بالرؤية الداخلية.

منذ ألفي سنة ونحن نردد مع الرسول يوحنا «المسيح قام». هكذا نادى الرسل وهكذا ننادي اليوم، لأننا في كل يوم نختبر قيامة المسيح في حياتنا. «فطوبى للذين آمنوا ولم يروا». إيمان الرسول توما يشددنا اليوم ويحثنا أن نجدد إيماننا بقيامة المسيح، لأن القيامة هي ركيزة إيماننا وخلاصنا.

أحد الفصح

صباح الاحد ٥ أيار ٢٠٠٢ ترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة الهجمة وقداس الفصح في كنيسة القديس ديمتريوس في الاشرفية بحضور حشد كبير من المؤمنين. وبعد قراءة الإنجيل المقدس القى سيادته العظة التالية:

«المسيح قام – حقًا قام، فلنسجد لقيامته ذات الثلاثة الأيام. المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور.

يا أحبتي، الوجود، كل وجود هو إلهي. الله وحده الوجود وكل ما وُجد قد اتخذ وجوده منه. الكون وكل الخليقة من صنيع الله، وكلها تعبّر عن وجود الله. كل شيء أُعطيناه يعبّر عن حضور الله، وعندما ننظر إلى الموجود يرفعنا الموجودُ إلى مصدره الحقيقي، إلى الله، فنبارك الله ونسبّحه ونشكره ونسجد له. الله لا يرتضي العدم. خلق الإنسان من التراب وأوجد الكون كله وما فيه، وكل هذه المخلوقات هي من فيض محبة الله، وكلها مظاهر قوة الله ومجده.

بابتعاده عن مبدأ الوجود ومصدره، عن الله، الإنسان لم يعد يرى الله بل فراغًا وعدمًا. تيه الإنسان في الفراغ لم يرضِ الله لأن الإنسان يضيع في الفراغ، مهما توهم فراغه وما فيه. ما لا نراه من خلال الله وهم. تظن أنك ترى الجمال لكنه زائل إن لم تنظره بعيني الرب. تظن أن في المال وجودًا وفي الجاه وفي العلم وفي الأنا ... لكن هذه كلها، كل ما تظنه موجودًا، إن لم تره بعيني الرب يزول ويفنى.

كان الإنسان يتيه في الدنيا، يتخبط كالأعمى والمجنون في صحراء حياته ولا يشعر بالشبع والامتلاء لأن كل ما يظنه موجودًا ليس سوى سراب. لم يعِ أن الله مصدر الوجود ولم يرفع عينيه إلى الله ويشكره على نِعَمه. تألم الله عندما نظر الإنسان يتخبط تائهًا، وكان يعلم أن الإنسان، بابتعاده عنه، سيكون في الضلال والموت، في العدم. الله يعلم أن العدم موجود في فكر الإنسان وفي ذهنه وقلبه. والعدم هو الموت بالنسبة للإنسان، لذا نقرأ في سفر التكوين أن الله دخل الخواء Chaos،أي الفوضى، لينظمها، وليخلق الكون والإنسان ويجعل كل شيء حسنًا. دخل الله الفوضى ليجعلها كلمة، أمرًا معبِّرًا، لأن لا تعبير في العدم، والخواء لا كلمة فيه. عندما ندرك الأمور، كلمة الله فيها تنتقل إلينا فنرى الأشياء كما شاءها الله لأن الله يكلّمنا بها. لقد خلق اللهُ الكون لكي يعبّر الكونُ باتساقه، بنظامه، بتكوينه، باتحاده، بانسجامه، عن وجود الله، ولكي نرى من خلاله مجد الله، ومن خلال الإنسان حكمة الله وعظمته التي لا تُحد.

يسوع تجسد وصار إنسانًا، اتخذ الإنسان المشوّش، الضال، المعذب،

الإنجيل

(يوحنا ٢٠: ١٩–٣١)

لما كانت عشيَّة ذلكَ اليومِ وهو أولُ الأسبوعِ والأبوابُ مُغلَقَةٌ حيثُ كانَ التلاميذُ مجتمعينَ خوفًا من اليهود جاءَ يسوعُ ووقفَ في الوسْطِ* وقال لهم السلامُ لكم* فلما قال هذا أراهُم يديهِ وجنبَهُ. ففرح التلاميذُ حينَ أبصروا الربَّ* وقال لهم ثانيةً السلامُ لكمْ كما أرسلني الآبُ كذلكَ أنا أرسِلُكم* ولما قال هذا نفخ فيهم وقال لهم خُذوا الروحَ القدس* مَن غَفَرْتُم خطاياهم تُغفَر لهم ومن أمْسَكتم خطاياهم أُمسِكَتْ* أما توما أحدُ الإثنيْ عَشَرَ الذي يقالُ لهُ التوأم* فلم يكنْ معهم حين جاءَ يسوع* فقال لهُ التلاميذُ الآخرون إنّنا قد رأينا الربَّ. فقال لهم إن لم أعاينْ أثرَ المسامير في يديْهِ وأضَعْ إصبَعي في أثرِ المساميرِ وأضَعْ يدي في جنبهِ لا أؤمن* وبعد ثمانيةِ أيامٍ كان تلاميذهُ أيضًا داخلاً وتوما معهم فأتى يسوعُ والأبوابُ مُغلَقَةٌ ووقفَ في الوسْطِ وقال السلامُ لكم* ثم قال لتوما: هات إصبعَكَ إلى ههنا وعاينْ يديَّ وهاتِ يدكَ وَضَعْها في جنبي ولا تكنْ غيرَ مؤْمنٍ بل مؤمنًا* أجاب توما وقال لهُ: ربّي وإلهي* قال لهُ يسوع: لأنكَ رأيتني

آمنت، طوبى للذينَ لم يَروا وآمنوا* وآياتٍ أُخَرَ كثيرةً صنعَ يسوعُ أمامَ تلاميذهِ لم تُكتَبْ في هذا الكتاب. وأمَّا هذه فقد كُتبتْ لتؤمنوا بأنَّ يسوعَ هو المسيحُ ابنُ اللـه. ولكي تكونَ لكم إذا آمنتم حياةٌ باسمه.

تأمل

كثيرون هم الذين يؤمنون بقيامة المسيح، لكن قليلون هم الذين يرونها بوضوح. طبعًا الذين لم يَروها بالروح لا يستطيعون أن يسجدوا ليسوع المسيح قدوسًا وربًا. لقد قيل: «لا يستطيعُ أحدٌ أن يقولَ إن يسوعَ هو الربُّ إلا بالروح القدس»، وقيل أيضًا: «الله روحٌ والذين يسجدون له ينبغي لهم أن يسجدوا بالروح والحق» (يو٤: ٢٣). ان النص الشريف الذي نتلوه دائمًا لا يقول: «إذ قد آمنا بقيامة المسيح»، بل «إذ قد رأينا قيامة المسيح، فلنسجد للرب القدوس البريء من الخطأ وحده...».

كيف يمكن للروح القدس أن يحُثَّنا - وكأننا رأينا ما لم نُشاهد فعلاً - على القول: «إذ قد رأينا قيامةَ المسيح»، رغم أن المسيح قام مرَّةً واحدةً قبل ألف سنة، وحتى في لحظة القيامة لم يرَهُ أحدٌ؟ أيأتي الكتابُ بأقوالٍ كاذبةٍ؟ حاشا! على العكس هو يدعونا إلى أن نقول الحقيقة لأن قيامةَ المسيح لكي يستعيد الإنسانُ كيانه، وحدته وانسجامه، لأن الله يجمع ويلملم ما تشتت. اتخذ اللـهُ الإنسانَ ليعيده تعبيرًا عن الله وليصبح داخلُه هيكلَ الله وكلمتَه. دخلَ اللهُ الإنسانَ لكي يستعيد الإنسانُ مكانته في جوار الله.

عدو الإنسان الأكبر هو الموت، ومهما كبر الإنسان وعظم مركزه وانتفخت جيوبه، مصيره النعش فالقبر. مهما تكبّر الإنسان وتجبّر وتباهى بجماله وماله، يعرف أن الشباب والمال يزولان والموت لا بد منه، إن لم يكن مع الله. الإنسان البعيد عن الله مهدّد بالموت، وهو يعيش في الحزن والخوف واليأس والفراغ والموت لأنه لا يعرف الله ولا يتكل عليه. الإنسان البعيد عن الله لا يدرك أن الله دخل الموت لينتشل الإنسان من جحيم الموت إلى الحياة. «أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيًا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يو ١١: ٢٥-٢٦) قال يسوع لمرثا أخت لعازر التي شكت له موت أخيها. يسوع الإله المتجسد دخل الموت ليميته وسبى الجحيم بقيامته وأقام الإنسان معه. من بقي به متشبثًا لا يعرف إلاّ الحياة وإن مات، لأنه قائم بالمسيح يسوع، في جسد نوراني، إنسانًا جديدًا قد استعاد طبيعته الأولى التي خسرها بابتعاده عن الله. نحن بالمسيح خليقة جديدة، لنا فكر المسيح وقول المسيح ومشيئة المسيح. نقرأ في إشعياء النبي: «لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطي زرعًا للزارع وخبزًا للآكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إلي فارغة بل تعمل ما سررتُ به وتنجح في ما أرسلتها له» (٥٥: ١٠-١١). بتجسده وموته وقيامته جعلني يسوع إنسانًا جديدًا يعمل بإرادة الآب السماوي ومشيئته، وملأ الإنسان والكون من حضوره ومجده. «الذي نزل هو الذي صعد أيضًا فوق جميع السموات لكي يملأ الكلَّ» (أف ٤: ١٠).

الحياة خارج الله صعبة إن لم نقل مستحيلة. نحن نوجد بيسوع، وبه نحيا إلى الأبد. «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو١: ١٨). نحن بيسوع نعرف الله ومن خلال وجهه نكلم الله. يسوع نورنا وحياتنا وهو يكشف لنا الحق. بقيامته لبسنا جسدًا جديدًا وإذا ما حافظ أحدنا على جسده القديم فبمشيئته هو وبسبب خطاياه وبُعده عن المسيح.

في حياتكم العائلية، إذا كنتم مع يسوع كان يسوع حاضرًا في بيتكم وفي حياتكم. ومن لم يكن على علاقة بالمسيح يسوع هو في ضلال وألم، في ظلام وتعاسة وبؤس ونجاسة. إذا كان الرب حاضرًا في بيتكم يباركه بحضوره ويبارك حياتكم، وبكم يبارك الآخرين لأنه يبارك الإنسان بالإنسان الذي يحب الله.

دعائي في هذا اليوم المبارك أن لا يتعب إنسان من انتظار الله. بعض القديسين انتظروه سنوات سكب عليهم بعدها نِعَمَهُ العظيمة. لذلك أقول لكم رافقوه باستمرار، صلّوا ولا تملّوا لأنه سميع مجيب.

صلاتي أن يباركم ويبارك العالم بكم. ما نشهده في العالم، بدءاً من بلدنا، سببه البُعد عن الله. ما يعيشه العالم اليوم من فوضى وظلم وتكاذب وتقاتل وتسابق على المغانم هو نتيجة بُعد الذين يسوسون العالم عن الله. كثيرًا ما نسمع الدول العظمى تتكلم على العدالة وحقوق الإنسان والفضائل، ولسنا ندري إن كانت تمارس ما تبشر به. ونحن نعرف أن بإمكان الشيطان «أن يغيّر شكله إلى شبه ملاك نور» (٢ كور١١: ١٤).

اليوم يوم القيامة. إنه يوم جديد بالنسبة لنا. لقد صمنا أربعين يومًا والأسبوع العظيم لتتنقى قلوبنا وتصبح أجسادنا أهلاً لسكنى الروح

وتصبح أجسادنا أهلاً لسكنى الروح القدس فيها. والرب يفرح بالاستقرار في قلوبنا وهو ليس بعيدًا بل واقف على باب قلبنا يقرع لنفتح له. أسألكم أن لا تغلقوا دونه الباب وأن لا تسمحوا له بمغادرة قلوبكم، متى دخلها، لتعيشوا في البركة وفي المجد الإلهي، آمين».

النزول إلى الجحيم

ملاكٌ يبشر والدة الإله مريم بالحبل بالمسيح وولادته، وملاك يبشّر مريم المجدليّة ببشارة الفرح بقيامة المسيح من القبر. المسيح يولد في بيت لحم، وكذلك ليلاً يولد من جديد من بين الأموات في صهيون. يولد في مغارة من صخر، ويولد ثانيةً عند القيامة من مغارة وصخرة. يُلفّ بالأقمطة عند الولادة وعند الدفن. هناك تقبّل المر الذي قدّمه له المجوس، وهنا يتقبّل دهنه بالطيب ودفنه على يد يوسف ونيوقديموس. هناك يخدمه يوسف خطيب مريم الذي لم يكن يعرفها، وهنا يوسف الذي من الرامة. هناك الرعاة أولاً بشّروا بولادة المسيح، وهنا رعاةٌ أيضًا، وهم تلاميذ المسيح، بشّروا قبل غيرهم بولادته الجديدة من الأموات. هناك هتف الملاك بالعذراء «افرحي»، وهنا المسيح ملاك الرأي العظيم هتف بحاملات الطيب «افرحن». في ولادته الأولى دخل المسيح إلى أورشليم الأرضية بعد أربعين يومًا، دخل إلى الهيكل وقدّم له كونه البكر زوج حمام. أيضًا عند ولادته الجديدة من الأموات بكرًا ولا فساد، صعد بعد أربعين يومًا إلى أورشليم السماوية التي لم ينفصل عنها، إلى قدس الأقداس، وقدّم لله الآب زوج حمام بلا عيب وهما النفس والجسد، جسدنا. هناك في السماء تقبّله سمعان، ولكن أيّ سمعان هذا؟ القديم الأيام، الله الذي قبل الدهور، وكأن على ذراعيه، في حضنه ما يتعدّى كل وصف بشري. وإن اعتبرتَ كل ذلك خرافةً لا إيمانًا حقًا أدانتك الأختام غير المنتهكة، أختام القبر السيّدي لقيامة المسيح.

فإنه كما ولد المسيح من العذراء حافظًا أختام البتولية (تلك التي تُفتح طبيعيًا بالحبل عند النساء كافة) مصونة، هكذا حصل بالضبط لدى قيامة المسيح من الأموات إذ ان أختام القبر لم تفتح هي أيضًا عند القيامة.

وأنت يا آدم لك أقول أمرًا: إنهض من نومك الدهري. لم أجبلك لكي تبقى مكبّلاً في الجحيم. قم من بين الأموات لأني أنا هو حياة الراقدين. إنهضْ إلى فوق، إنهض يا من أخذ شكلي، من خلقتُه على صورتي. إنهض لنرحل من هنا لأنك أنت فيّ وأنا فيك! من أجلك أخذتُ صورة عبد. من أجلك نزلتُ إلى الأرض وإلى ما تحت الأرض أنا الذي هو أرفع من السموات. من أجلك «صرتُ مثل اقتلى المُضطجعين في القبر الذين لا تذكرهم بَعدُ» (مز ٨٨: ٥). من أجلك أنت، يا من خرجتَ من بستان الفردوس، في بستان سُلمتُ إلى اليهود وفي بستان صُلبتُ (يو ١٩: ٤١).

إنهض لنرحل من هنا. قبلاً نفيتك من الفردوس الأرضي، والآن **أعيدك لا إلى ذلك الفردوس بل إلى العرش السماوي**. آنذاك منعت عنك عود الحياة (تك٣:٢٢)، لكني الآن أتحد بك تمامًا، أنا الحياة نفسها. قبلاً أمرتُ الشاروبيم بحراستك كعبد والآن أقود السارافيم للسجود لك كإله. لقد اختفيتَ قبلاً من أمام الله لأنك كنت عريانًا، لكنّك أهّلت الآن لأن تخفي في داخلك الله نفسه عريانًا. ولذلك انهضوا لنرحل من هنا! من الموت إلى الحياة، من الفساد إلى عدم الفساد، من الظلمة إلى النور الأبدي، من الوجه إلى الحريّة، من سجن الجحيم إلى أورشليم السماويّة، من القيود إلى الراحة، من العبودية إلى نعيم الفردوس، من الأرض إلى السماء.

القديس أبيفانيوس القبرصي

تحصلُ فعلاً في نفسِ كل مؤمن على حِدَة، وذلك ليس مرّةً واحدةً، بل في كل ساعةٍ يقومُ المسيحُ السيّدُ فينا حاملاً الضياءَ ومشعًا بأشعة الألوهية، وعدم الفساد. ذلك أن حضور الروح القدس المنير يكشفُ لنا قيامة السيد كما في نورٍ صباحي، أو بالأحرى يؤهّلنا لرؤية المسيح نفسه قائمًا. لذلك نقول: «الله الرب ظهر لنا»، ونتابع مؤكدين على مجيئه الثاني «مباركٌ الآتي باسم الرب».

ان الذين يظهرُ لهم المسيح قائمًا يرونه روحيًا وبأعينهم الروحية، أي عندما يدخل المسيح فينا بنعمة الروح القدس يُقيمنا من بين الأموات، يُحيينا ويؤهلنا لأن نراه في ذواتنا حيًا كله، وهو العديم الموت والفناء. ليس هذا فحسب بل يُعطينا أيضًا موهبة إدراك حضوره البهج مقيمًا وممجّدًا إيانا كما يشهد على ذلك الكتاب المقدس بأسره.

هذه هي أسرارُ المسيحيين الإلهية، هذه هي قوّةُ إيماننا الخفية، القوّةُ التي لا يعرفها المُلحدون والمُشككون وقليلو الإيمان، ولا يُمكنهم أن يروها.

القديس
سمعان اللاهوتي الحديث